

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة التاسعة - العدد الثالث والثلاثون - ربيع ١٣٩٨ش / آذار ٢٠١٩م

صص ٨٥ - ٦٩

العتار النيسابورى والرؤى السريالية في تذكرة الأولياء

فاطمة امامى*

الملخص

السريالية (الفوق واقعية)، هي مدرسة فنية وأدبية نشأت في العقد الثالث من القرن العشرين في فرنسا. تحمل الرؤى والأفكار اللاشعورية (اللاوعى) والذاتية والتجريد والخيال فأصبحت عناصر واقعية في ساحة الفن والأدب، كما أنها أمور لها مكانة خاصة ومميزة في ساحة التصوف. وعلى الرغم من معرفتنا بأن المبادئ والنماذج التي تتميز بها الأعمال الأدبية والصوفية لدى أدبائنا لا تنطبق تماماً مع السريالية كمكتب ومذهب، ولكن هناك دلالات متقاربة ورموزاً متشابهة لمكونات المدرسة السريالية مثل السخرية، والسحر، والحالات الغريبة، والرؤيا (الحلم)، والكتابة التلقائية، والجنون والتهور والمصادفة، تمكّنا من دراسة الرؤيا في تذكرة الأولياء للشاعر العطار النيسابورى. ومن هذا المنطلق يقوم البحث على أساس المنهج التحليلي المقارن. ومن خلال هذه الدراسة، توصل البحث إلى أن الرؤيا في تذكرة الأولياء برزت كأحد الأدوات والوسائل التي استعان بها الشاعر لعرض أفكار استقاها من عالم يتفوق الواقع إلى أبعد الحدود انفتح إليه من خلال مراتب الشهود الحاصلة لديه ضمن تجربته الصوفية.

الكلمات الدليلية: العطار، تذكرة الأولياء، الرؤيا والرؤى، السريالية.

*. أستاذة مساعدة في اللغة الفارسية وآدابها، فرع رودهن، جامعة آزاد الإسلامية، رودهن، إيران

Femami@gmail.com

تاريخ القبول: ١٣٩٨/٣/١٢ش

تاريخ الاستلام: ١٣٩٧/١٠/٢١ش

المقدمة

يتكوّن لفظ السريالية من جزأين؛ (Sor) بمعنى "فوق" و (Real) بمعنى "الواقع". (أنوشه، ١٣٧٦ش: ٨٣٦) وهى مدرسة فنية أدبية نشأت خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية فى أوروبا وبالتحديد فرنسا. كما يعدّ هذا التيار الفكرى امتداداً للمدرسة الدائبية وهى حركة عبثية رفضية ناتجة عن العدمية والإنكارية، نشأت بعد الحرب العالمية الأولى فى أوروبا. فى الواقع ظهرت السريالية كردّ فعل ثورى فى أعقاب الحرب العالمية حوالى عام ١٩٢٠م حيث انفصلت مجموعة من الدائبيين بقيادة أندريه بريتون وأسست مدرسة تدعى السريالية. والسريالية هى فى الواقع تمرّد ضد الحضارة الغربية، لأن أعضاء هذه المدرسة، هم من تزامنت فترة مراهقتهم الحرب العالمية الأولى. يعتقد هؤلاء أن الحضارة التى تسببت فى الحرب والدمار لا يمكن أن تكون موثوقة بأى حال من الأحوال. لهذا السبب تقدم هؤلاء الشباب فى الاهتمام الفكرى بالقوى الفكرية للعقل الإنسانى من خلال ثورة فكرية وفنية. فحاولوا تغيير الظروف غير المستقرة لحياتهم بمساعدة هذه القوى. وتوقعوا أنه إذا تم إطلاق القوى الخفية للروح البشرية، فإنه من المتوقع تحقيق حياة أفضل. ولقد أدركوا أن الحياة على أساس العقل لا تصلح. وللهرب من الواقع، لجأوا إلى حقيقة تتجاوز الواقع الظاهر. لم ترفض هذه الحركة جميع القيم الإنسانية، بل سعت إلى إيجاد قيم جديدة يمكن أن تحقق لهم حياة أفضل، فوجدوا هذه الحياة فى إطلاق كل القيود عن العقل. (ثروت، ١٣٨٥ش: ٢٨٠)

يرى أندريه بريتون فى بيان عام ١٩٢٩م أن هدف السريالية هو اكتشاف نقطة فى ذهن الإنسان تتحد فيها جميع التناقضات. يقول بريتون: «كل شىء يقودنا إلى الاعتقاد بأن العقل البشرى لديه نقطة حيث الموت والحياة، الخيال والواقع، الماضى والمستقبل، القابل للتحويل وغير القابل للتحويل، الصعود والهبوط، لا يبدو أنها متناقضة. والآن أيضاً كانت كمية البحوث والدراسات فى هذا المجال، فإن كل ما يهّم هذه المجموعة هو البحث عن هذه النقطة والحافز الوحيد لنشاطات السرياليين هو تحديد هذه النقطة بالذات، فمن هذا المنطلق يتضح أن مجرد وصف محاولات هذه المجموعة بأنها مدمرة أو بناءة، فهو وصف باطل وعمل عابث لا فائدة منه. لأن النقطة التى نتحدّث عنها لا يمكن

اعتبار التدمير والبناء فيها أمرين تقيضين.» (بيگزى، ١٣٧٥ش: ٥٤) وهى نقطة تتلاقى فيها الروح والمادة ويزول فيها النقيض حيث لا خلاف ولا تباين بين الشئيين. وهو اللامكان حيث لا يتسع فى الزمان ولا فى المكان. لا يمكن تصويره فى الحالة العادية، وهى نقطة البداية والنهاية والظاهر والباطن. تكمن هذه النقطة فى جغرافيا الخيال. لا يمكن إدراكها إلا بواسطة اللاشعور والخيال، حيث الوصول إلى الحقيقة والخوض فى الاتحاد الخالص بين الوجود والكائن الموجود أو الوصول إلى هذه النقطة المعنية، يتطلب التحوّل الأساسى فى القوى العقلانية والحسية. والخيال أو اللاشعور هو الطريق الوحيد لخوض هذا العالم. فى هذه الحالة يصبح الجسم مرناً وله قوة غير عادية. والاعتراب الحقيقى للإنسان إنما يكمن فى الابتعاد عن هذه النقطة ونتيجة نقله إلى العالم المحسوس المحدد. توفر الكتابة السريالية أساساً للتخلص من هذا الاعتراب. فاستخدم السرياليون سبلاً بعيدة كل البعد عن أى تحكّم خارجى دون رقابة العقل لكشف عالم اللاشعور والخيال وهى: ١- السخرية والاستهزاء ٢- السحر والشعوذة ٣- الرؤيا والحلم ٤- الكتابة التلقائية / الشطح بالقول ٥- الجنون ٦- المصادفة.

أهداف البحث

يسعى البحث معتمداً النهج التحليلى المقارن إلى أن يحلل ويقارن بين مبادئ السريالية وأساليبها المختلفة لدراسة بنية الرؤيا وإشكالياتها بشتى أنواعها فى تذكرة الأولياء ليعرض وظائف مماثلة للسريالية فيها. كما أن البحث يوضح فى جانب من الدراسة أن العطار استعان بالرؤيا كأداة لكى يعبر من خلالها عن عالم يفوق الواقع المرئى والذى توصل إليه من خلال مراتب الشهود المحاصلة لديه.

خلفية البحث

يعدّ كتاب "الشروح الأربعة لتذكرة الأولياء" الكتاب الوحيد الذى خصّص جزء منه لموضوع الرؤيا فى تذكرة الأولياء. وقد أشار مؤلفه بابك أحمدى فى أحد الشروح إلى موضوع الرؤيا فى تذكرة الأولياء فحسب، من غير بحث ودراسة. وهناك مقالة أخرى تحمل عنوان "التطابق الشكلى للأدب السريالى فى تذكرة الأولياء للعتار النيسابورى"،

قامت بدراستها كل من مريم جهان تيغ وفاطمة تيمورى فتحى. وهناك أعمال حول المضمون وبنية النص أو الحبكة في تذكرة الأولياء ولا يمت لموضوع هذا المقال بصلة. وما هو ملاحظ أنه لم يخصص أى مقال أو كتاب للرؤيا أو الحلم السريالى في تذكرة الأولياء للعطار النيسابورى. ولكن هناك مقالاً حول مشنويات جلال الدين محمد البلخى تحت عنوان "الرؤى فى مشنويات جلال الدين الرومى" لسيد أحمد پارسا وكما يبدو من العنوان، فقد تطرق المقال إلى أنواع الرؤى دون الإشارة إلى الرؤى السريالية. وبناء على هذا، فإن هذا البحث يعدّ أول بحث علمى يسلط الضوء على أنواع الرؤى والرؤيا السريالية فى تذكرة الأولياء وفيه نقاش حول أنواع الرؤيا ودورها فى تذكرة الأولياء للعطار النيسابورى.

الرؤيا

لا تقل الرؤيا مرتبة من الصحو لتصل فى تلك الحالة إلى حكمة متعالية. يعتبر أراغون أن «الرؤيا شكل من أشكال الوحى، يتحدث فيه الآلهة إلى ضحاياها وكل ما يحدث فى عالم الرؤيا يحفظه صاحبه بكل أمانة وموضوعية.» (أحمد سعيد، ١٣٨٠ش: ٢٨٩)

ويمكن اعتبار الرؤيا شكلاً آخر من أشكال التفكير ووسيلة للطمأنينة النفسية يحتاج إليها كل أفراد البشر. و«الرؤيا كأحلام اليقظة وسيلة للخلاص من التنازع النفسى والعودة إلى الظلمات الثلاث مع الفارق بينهما فى حصول الخيال عند الصحو وحصول الرؤيا عند المنام.» (أنوشه، ١٣٧٦ش: ٢٢٠)

يقسّم الصوفية الرؤيا على أنها نفسانية وروحانية (إلهية). الرؤيا الإلهية هى تلك الرؤى الصادقة لأنها تحصل بكل وضوح من جانب الخالق والأنبياء والملائكة. وتحصل الرؤيا الصادقة لمن بادر برياضة النفس ومجاهدتها حسب رأى الصوفية. فى هذه الحالة تتكشف الأسرار للعارف الصوفى عند المنام. ويتحول المنام له إلى ملجأ لحل المشاكل ويكون بمثابة مفتاح لفتح الأقفال. «وكثيراً ما نقرأ فى قصص الصوفيين أنهم عندما يواجهون صعوبات فى أمر الدين يجدون الحل وطريق النجاة فى المنام والرؤيا تحديداً

أو في الواقع أحياناً أو أنهم يتوسّلون بالدعاء ثم يرون في المنام طريق الحل، ذلك لأن النوم عند الصوفيين هو أحد طرق الكشف والشهود تحصل لديهم عندما تتصل الروح بعالم الغيب.» (فروزان فر، ١٣٧٤ش: ٢٥٨)

تعطى الرؤيا لأوهامنا شكلاً وحالة وتجسدها خير تجسيد. وباستعانة هذه التصاویر نتحدث مع مخلوقات وهمية أو نتحدّث مع شخص ميّت لا وجود له في الحياة أو "أن نعطي مقطوع الرأس كأساً!". ونتيجة لشدة المحبة، يسمح الصوفي لنوع خاص من الرؤيا أن تتحكم فيه وفي سلوكياته وأقواله حتى تصدر منه سلوك كامل وأقوال غريبة وهي تصرفات لإرادية ولا هي مكتسبة ولا تمارس، بل هي كالحركات والخطابات والسلوكيات التي تصدر دون إرادة من الشخص يمكن عدّها عملاً إبداعياً وتدوفاً فنياً يصدر عن محبة متزايدة.

والفرق بين الخيال الأدبي والفكري الإبداعي لدى الصوفي الحقيقي والآخريين من الشعراء والأدباء والفنانين، هو أن هؤلاء يبتكرون الفن والإبداع حسب متطلبات العصر، ولكن العارف الصوفي فهو بعيد كل البعد عن المجتمع وقضاياه. لهذا ترى أن كل إبداعاته الفنية متغيرة من لحظة لأخرى وتتنوع من حين لآخر. فهذه اللحظات هي وليدة رؤيا عاطفية لإرادية ناتجة عن الحالات النفسية لا يدركها أي أحد.

والسريالية هي مدرسة تتبع حقيقة تفوق واقع الرأسمالية العالمية. فالسريالية هي التعبير وتحديد التفكير بعيداً عن تحكم العقل فيه، وليس له علاقة بقوانين الجماليات والأخلاق. من أجل استخلاص حقيقة يعتبرونها خافية في أعماق الضمير والعقل الباطن، يسير الكاتب أو الشاعر بعيداً عن الواقع فيعيش حالة حلم، ثم يدوّن تلك الحالات والتصورات العقلية التي تحصل تلقائياً دون إرادة منه يدوّن كتاباً ولا صلة لهذه النصوص بالعقل الباطن واللاوعي بتاتاً، وإنما هي حالات كشف وشهود. لهذا نرى الرؤيا السريالية وهي لا إرادية ونابعة عن العقل الباطن، ترتبط بالسريالية.

منذ ألف سنة قبل آندريه بيرتون، ألف الصوفية المسلمون كتاباتهم المثيرة والمنتشبة بأساليب وضع أسسها السرياليون الفرنسيون في بداية القرن العشرين. وقد شهد تاريخ التصوف الإسلامي كثيراً مما يعرف بشطحات الصوفية والمشاهدات والكشوفات.

ومن النماذج الرائعة يمكن الإشارة إلى رؤى روزبهان بقلی الشيرازى في كتاب كشف الأسرار. (مبيدى، ١٣٨٢ش: ٤٧) وفيه تأليفات مثيرة تشاكل تأليفات سرالية تشمل جميع القواعد التي شرحها السرياليون في بيانهم المعروف. وكثيراً ما تحدّث محي الدين بن عربي في كتابه الفتوحات المكية (خواجوى، ١٣٩٣ش) وسائر أعماله عن الرؤى التي رآها في المنام واستناداً للأحاديث النبوية الشريفة، اعتبر ابن عربي أن الرؤيا مبدأ الوحي وجزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (غراب، ١٩٩٣م: ٤) وتعدّ لحظات الشغف والإثارة والمجنون عند مولانا جلال الدين محمد البلخي في غزلياته (فروزان فر، ١٣٩٥ش) وسكره عند الكتابة، هي من التجارب السريالية.

الرؤيا في تذكرة الأولياء

إن للرؤيا مكانة خاصة تفوق الزمان في أعمال العطار النيسابورى. فالرؤيا عند العطار ليس بمعنى غياب الحواس أو راحة البال. من منظور آخر، يعتبر العطار الرؤيا نوعاً من الموت بالمعنى الموصوف أعلاه وغياب الحواس واجتياز عالم المادة. وتعدّ الرؤيا في تذكرة الأولياء مرحلة اجتياز هذا العالم إلى عالم يفوق الزمان وهو مرحلة اللانزمان أو مرحلة الغيب حيث تخلص الروح من الجسم والعودة إلى التجربة الأزلية. الرؤيا في قصص العطار هي عنصر أساس، ظرفٌ يجتاز أبطال القصص من خلاله الزمان. واللافت للانتباه هو أن الرؤيا توفّر مجالاً من خلال الاتصال مع عالم الغيب الذي يهيمن على عالم العطار العابر، ما يكتننا من اجتياز الزمان والحضور في المستقبل بتجليه بصورة مجازية. كما جاء في سورة يوسف عند حل رموز الرؤيا والتعبير عنه بالتأويل. في هذا الأثر الأدبي يتعلق الزمان بعالم المادة والشهادة وله مسافة معينة. بعد اجتياز المسافة المعينة من الزمان، بإمكاننا إدراك حقيقة تحدث في النوم. يمكن مقارنة هذه الحقيقة مع يوم الساعة والعالم الآخر الذي يظهر بعد اجتياز المرحلة الأخيرة من الحياة وهي نقطة الموت النهائية. وبناء على هذا، فإن السلوك الصوفي في وجهة نظر العطار، هو اجتياز حدود الزمان. ثم قارنوا الرؤيا بالموت. وفي رواية عن النبي (ص) أن النوم هو أخو الموت وفي كلتا التجربتين، يتجلى ما هو خارج الزمان كتجربة خارج

تجربة الحياة وعالم المادة.

وفى تذكرة الأولياء يرى الكاتب أن الوصول إلى الاتصال الغيبى والتواصل الإلهى يتطلبان خلفية يتحقق الاتصال من خلالها، كالمنام والرؤيا. النوم كالبرزخ يربط بين عالمين فى فترة وجيزة. فتعرف من خلال الشروح وسيرة المشايخ الذاتية أن الموت ليس نقطة النهاية وأن الشيخ يزور مرديه ويتواصل معه حتى بعد وفاته وذلك فى المنام من خلال الرؤيا الصادقة. كما وردت أحاديث حول رؤية الخالق فى منام الصوفية العارفين ذلك اللقاء الذى حصل فى الأزل ووعد به فوجل إلى يوم القيامة. كما يمكن دراسة الرؤيا فى تذكرة الأولياء من عدة زوايا مختلفة، ولما فى الرؤيا والمنام من أهمية فى هذا الكتاب، سنقوم بدراسة أنواع الرؤيا فى تذكرة الأولياء دراسة وافية.

أنواع الرؤيا فى تذكرة الأولياء

بالقاء نظرة دقيقة فى تذكرة الأولياء، نرى أن كل الرؤى هى من نوع الرؤيا الصادقة، فىمكن تقسيم هذه الرؤى من حيث الفكرة والمضمون إلى أنواع مختلفة وهى كالتالى:

١- الرؤى المنبئة: من أفضل أنواع الرؤى هى تلك التى ستحصل أحداثها فى عالم الواقع، وإحدى سماتها الرئيسة أن صاحبها يطلع من خلال النوم على أحداث وقضايا ستحصل له فى المستقبل وباستعانة هذه المعطيات الغيبية يتمكن من تحسين حياته ليقوم بمكافحة الشر ومحاربة الخبائث والفشل. ومن طبيعة هذه الرؤى أن يتم شرح الأحداث المستقبلية عبر مشاهد تحصل بالصورة الدقيقة وبجميع تفاصيلها أو أن هناك إشارات وإيماءات تدل بها.

«رأوا داوود الطاعى فى المنام وهو يقفز فى الهواء قائلاً: "تخلصت من السجن" والتعبير هو أنه كان قد مات.» (الخطار، ١٣٨٦ش: ١٥٧)

«قال ربيع: قبل أيام من وفاة الشافعى، رأيت فى المنام أن آدم عليه السلام قد توفى وأراد الناس إخراج جسده. عندما استيقظت تساءلت عن التعبير: قال المفسر من هو أكثر علماً فى زمانه يموت. لأن العلم هو مزية آدم. وحقاً كان قد توفى الإمام الشافعى.» (م.ن: ٢٠٠)

٢- الرؤى المنبّهة وفك رموز الرؤيا: أساس هذه الرؤى قائمة على تحيّر الشخص في أمر ولا يجد له حلاً، فإذا بالحل يتجلى له في الرؤيا ويدرك الرائي كيف يفعله. على سبيل المثال يمكن الإشارة إلى الرؤيا التي رآها يحيى (ع). «تورط يحيى في المدينة بمائة الف درهم وفي الليل رأى يحيى، النبي (ص) قال له: لا تحزن يا يحيى قم وسر إلى خراسان، فإن هناك امرأة وضعت لك ثلاثمائة الف درهم مقابل مائة الف درهم.» (م.ن: ٣٢٧)

ومثل هذه الرؤى المنبّهة قد ينبئ بها الأموات، فالنبييه والهداية في الرؤيا تحصل باستعانة شخص متوفى. واللافت للنظر في تذكرة الأولياء أن هناك نوعاً من الرؤى المنبّهة يحضر فيها الميت في رؤيا شخصين. أي تحصل الرؤيا بصورة مشتركة لشخصين. ونشاهد هذه الرؤى المشتركة في تذكرة الأولياء حيث إن النبي (ص) يحضر في منام شخصين في رؤيا واحدة.

٣- تجسيم الفكرة: يقول كزازی في هذا النوع من الرؤيا: «يرى أصحاب مذهب القوى الخفية (الحروفيون) أن القوة والكفاءة الفكرية كلما ازدادت كلما تجلت كهيئة، أو بعبارة أخرى إذا ما وصل الفكر إلى درجة من التقارب والتناسق وأصبح ذات محورية يتجلى بصورة واضحة ويتجسد هيئة.» (كزازی، ١٣٨٥ش: ١١٤)

حسب التعريف المذكور أعلاه، فإن مثل هذه الكفاءة الفكرية في الرؤيا قد تحدث بالفعل لدى الأشخاص. وهناك نماذج كثيرة منها في تذكرة الأولياء جاءت بالصورة التي يتأقلم الرائي معها في رؤياه ويعتبرها حقيقة حتى أنه حين يستيقظ في عالم الواقع يشعر أن تلك الفكرة قد تحدث بالفعل بعبارة أخرى كأنها تتحوّل إلى "شكل" أو "هيئة". كما نرى في القصة التي تروى عن رجل جائع رأى النبي (ص) في منامه وهو يعطيه رغيف خبز، فبعد أن يستيقظ الرجل من النوم يرى الرغيف في يده. (الطار: ١٢٠)

«تجسيم أو تجسيد الفكرة بمعنى أن الفكرة وباستعانة تقنية معينة تتجلى شيئاً أو شكلاً ملموساً. ويطلق تجسيد الفكرة في علم ماوراء النفس على نوع من السلوك وآلية في نفس الإنسان تتجسد الفكرة باستعانتها شكلاً وهيئة ملموسة، بعبارة أخرى، فبإمكان الفكرة أن تتحوّل إلى شكل أو شيء تجسيدا إذا ما وصل إلى أقصى درجة من العمق

والكثافة والسماكة.» (كزازی، ١٣٨٥ش: ١١١)

وهناك نماذج أخرى لهذا النوع من الرؤى نشير إليها في السطور التالية:
 «يقول جنيد: سرت يوماً إلى شخص كان يبكي فقلت: ما بك؟ قال: خطر على
 بالي أن أعلق هذا الإبريق حتى يبرد ماؤه، ثم خلدت إلى النوم فرأيت حور عين،
 فسألته لمن تكون؟ فأجابت: لمن لا يعلق الإبريق حتى يبرد ماؤه! ثم ألتق بالإبرق على
 الأرض. أنظر ماذا حصل؟! يقول جنيد: رأيت الإبريق مكسوراً بعد إفاقتي من النوم
 وبقي الإبريق على حاله لفترة طويلة.» (العطار، ٢٨٨)
 (والصفحة ٥٠٦، رؤية جريري للنبي (ص) في المنام. والصفحة ٥٦٨، رؤية أبي علي
 الدقاق وداء العين)

٤- الرؤى بين الصحو والنوم: أغلب القصص الواردة في تذكرة الأولياء تحصل
 في حدود ما بين الصحو والنوم وهو عبارة عن سلوك معنوي يحدث في عالم الكشف
 والشهود أو الرؤيا تحديداً، وتعرض جميع المناقشات والبحوث الكلامية في باب الحب
 والوصل والفناء على المنتقدين في العالم كلوحة سريالية، كتلك القصة التي يرويها
 العطار: «رأى أحد المشايخ الكبار حلاج في عالم المنام وهو يمسك كأساً بيده دون
 رأس. قال: ما هذا؟ أجاب: أنه يقدم الكأس إلى من رؤوسهم مقطوعة.» (م.ن: ٥٩٤)
 وفي مكان آخر، تقول أم علي زوجة أحمد خضرويه: «في إحدى الليالي وأنا أطوف
 الكعبة غلب عليّ النوم. فرأيت في المنام أني أخلق في السماء حتى بلغت العرش وتحت
 العرش صحراء تنتشر فيه الورود والرياحين، مكتوب على كل ورقة منها أن أبا زيد ولي
 الله.» (م.ن: ٢١٠) وقد رأوا أبا سفيان الثوري في الرؤيا. «قالوا له كيف صبرت على
 وحشتك في القبر؟ قال إن قبري روض من رياض الجنة.» و«قد رآه آخر في الرؤيا
 وهو يقفز في الجنة من أحد طرفي ظل شجرة إلى الطرف الآخر.» «سألوا عن تفسير
 هذه الرؤيا؟ ففسروه بالورع.» (العطار: ٢٣٠) تستمد اللغة الصوفية مفاهيمها من الرموز
 الاستدلالية والمجازية للتعبير عن المقصود. وفي جميع النماذج والشواهد المذكورة في
 تذكرة الأولياء ظهرت اللغة الرمزية واللغة غير المباشرة بصورة مبدعة.

٥- الرؤى التمثيلية المجازية: هناك سبع وعشرون رؤية تمثيلية في تذكرة الأولياء.

ولهذا النوع من الرؤى الرمزية والمجازية أهداف معينة منها: (معرفة الآخرة ص: ٦٠)؛ (الوعى بالموت، صص: ٦٩٠، ١٨١، ٢٢٠)؛ (التعليمية ومعرفة الأسرار، صص: ٥٧١، ٤٩٥)؛ (في منزلة الصوفي العارف، ١٠٦، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٩٨)؛ (لون من ألوان المعراج، ٦٢٣، ٦٦٨)؛ (الوعى بالمستقبل، ٢١٦)؛ (التعليم، ٤٨، ٢٦٩)

عن حسن البصري: جاء أن أحد المشايخ الكبار رأى في المنام أن أبواب السماء فتحت وقد نادى مناد أن حسن البصري قد وصل إلى الله وأن الله راضٍ عنه. (الطار، ١٣٨٦ش: ٤١)

في الواقع إن الطار إنما يروي رؤى الصوفية وحالاتهم ليعرض كرامة أولياء الله في حضوره عز وجل، كما يبيّن للقارئ من جهة أخرى تجربة الحياة الصوفية. يرى أحد الصوفية أنه يُلملم رفات النبي (ص). والتفسير: بعد أن استفسر عن الرؤيا من أحد أصحاب ابن سيرين. قال له: «إنك تبلغ في علم النبي والمحرص على اتباع سنته مكانة رفيعة حتى أنك تتصرف فيه وتميز بين صحته وسقمه.» (م.ن: ٢٢٠)

«إن جمع رفات النبي في المنام رؤية تمثيلية مجازية والحصول على مفاهيمها الأساسية لا يتحقق إلا بعد إمعان في تفاصيل الرؤيا، ولا يمكن لكل أحد أن يحصل عليها أو أن يفسرها.»

قال أبو الحسن الخرقاني: «رأيت في المنام أني مع بايزيد وأويس القرني في كفن واحد.» (م.ن: ٥١١)

هذه الرؤيا وهي تمثيلية أيضا تحتاج إلى تفسير. لماذا ثلاثة أشخاص في كفن واحد؟ وينبغي أن تعرف أسباب رؤية هذه الرؤيا وماذا تحمل من رسالة إلى الرائي؟ قال أبو بكر الصيرفي: «رأيت في المنام أن التراب انفتح وخرج منه الشيخ ثم أراد أن يقفز في الهواء.» (ص: ٥٧٥)

رأى أحد كبار المشايخ الحلاج بدون رأس، بيده كأس وهو واقف. (ص: ٥١١)

ما هو سر رؤية مثل هذه الرؤى؟ لماذا هو واقف؟ ولماذا بدون رأس؟ وكثير من الأسئلة، وكيف أن الرؤيا تترأى للرأي بمشاهد تمثيلية. ويتطلب فهم رسالتها إماما تاماً وقلة قليلة تستوعب تفسير مثل هذه الرؤى الغامضة بصورتها

الصحيحة.

واللافت للنظر أن الرؤى إما قد رآها المتصوفة أو الرؤى التي رآها الآخرون عن الصوفية العارفين، في تقسيم آخر يتناول البحث الرؤى على أساس من يرى الرؤيا أو بعبارة أخرى من هو الرائي؟ ومن هو يأتي في المنام أو بعبارة أخرى من هي الشخصية في الرؤيا؟

١- من رأى الرؤى (الرئى)

إن الرؤى التي جاء ذكرها في تذكرة الأولياء، قد أفصح عن رائيها أحياناً: كأم على زوجة أحمد خسرويه؛ بنت أمير هروى، الخليفة، إبراهيم النبي، وسلطان محمود. ومنها لم يفصح عن رائيها. كما جاء ذكره بالعبارات التالية: رأى صوفي في المنام، رأى أحد المشايخ في منامه، رأى رجل زاهد مرتاض أو شاب في المنام ..

في كلتا الحالتين، تعود الأهمية إلى موضوع الرؤيا. حين يكون الرائي معروفاً، يؤكد العطار على أهمية الرؤيا. ذلك لأن شخصية الرائي، أى من رأى تلك الرؤيا هي ذات أهمية. وحينما لم يكن الرائي معروفاً يبدو موضوع المنام أكثر أهمية. وأحياناً يشير العطار إلى عدد المرات التي حصلت فيها الرؤيا ما يزيد من أهمية تلك الرؤيا. وأحياناً تتكرر الرؤيا الواحدة لدى عدة أشخاص ما يدل دلالة واضحة على أن تلك الرؤيا تحمل رسالة معينة وهامة في نفس الوقت.

يرى أبو بكر الصرفي في المنام «أن القبر انفتح وخرج منه الأستاذ وأراد أن يقفز في الهواء» (ص: ٥٧٥) يرى أحد الأشخاص أبا على الدقاق في المنام: «رأى أحدهم أبا على الدقاق أنه يمر عبر الصراط» (ص: ٥٧٥) الملاحظ هنا أن الرائي غير معلوم ولا فائدة من ذكر اسمه.

٢- الشخصية التي يراها الرائي في المنام

في هذه المجموعة من الرؤى، يلاحظ نوعان من الأشخاص في الرؤيا: ١- من هو معروف مع ذكر اسمه، ٢- من هو غير معروف ودون ذكر اسمه. في الرؤى التي تناولها العطار في تذكرة الأولياء، هناك ثمانية أشخاص جاء ذكر اسمائهم في الرؤيا، وعلى

رأس تلك الرؤى وهى الأكثر أهمية تلك التى يرون فيها الله عزوجلّ. ورؤية الخالق فى المنام هى من الأمور فوق واقعية والسريالية، قد تكرر مثل هذه الرؤى ٢٦ مرة فى تذكرة الأولياء.

قال أحمد خضرويه: «رأيت الحق عزوجلّ فى الرؤيا يقول: يطلب الرجال منى ما يريدونه إلا بايزيد فإنه يطلبنى أنا لا غيرى.» (ص: ١٥٥)

الطائفة الأولى ترى الخالق فى المنام. وسبب ذلك إنما يعود إلى عدّة حالات وهى: كرامة الصوفى العارف (٥٤)، الرعاية الربانية وشفاء قلب الصوفى (١٠٧)، نقل رسالة من الخالق إلى مخلوقه، التوبة (١١٠، ١١١)، فتح باب العلم (١١٩)، قيمة الدعاء (٢٣٨)، قيمة الإحياء والتهجد فى سبيل الله (٣٢٨) وما إلى ذلك.

الطائفة الثانية ترى النبى (ص) فى منامها. ورؤية النبى الذى رحل منذ سنوات عديدة عن هذه الدنيا، فهى من الأمور الماورائية فوق واقعية والسريالية. وقد شوهدت تلك الرؤيا ما يقارب ثلاثين مرة فى تذكرة الأولياء. ويذكر أن العطار يشير إلى النبى بأسماء مختلفة، فيناديه مرة المصطفى ومرات أخرى الزعيم والرسول والسيد. وسبب رؤية النبى أيضا تعود لحالات متعددة منها؛ كرامة الصوفى العارف (ص: ١١٥، ١٨٦، ٤٦٠، ٥٠٦ و٧٠٤)، لمصالحة الصوفى مع نفسه (١٢٣)، لنقل رسالة من الخالق، أو لاداء حق الأم (٥٨)، الوعى بالموت (١٣٧)، ذكر فضائل ذرية النبى وتقربهم إليه (١٨٧)، فى حفظ السنة النبوية (٢٠٩).

وممن حضر فى رؤيا الصوفى العارف، فى تذكرة الأولياء، على بن أبى طالب (ع). ورؤية من ضمّه التراب سنين عديدة وأزمة مديدة، هى من الأمور السريالية. وقد شوهد ثلاث حالات من الرؤيا لأمير المؤمنين على (ع) فى تذكرة الأولياء. وذكر باسم أمير المؤمنين والمرضى (ع). وكما يبدو أن الصوفى العارف عندما يرى عليًا (ع) فى رؤياه يكون ذلك إما للاتعاظ والنصح (١١٥) التحلى بعلم النبى (ص) والإمام على (ع) (٢٩٨، ٢٩٧) والأخذ بوصية ما (٢١٦).

والطائفة الأخرى التى تأتى فى المنام هى الصوفية. هناك ٣٢ حالة رؤيا حصلت لعدة من الصوفية العرفاء حيث رأوا الصوفى العارف الراحل عن هذه الدنيا فى منامهم

وقد سألوه ما صنع الله بك؟ فالكشف عن أسرار ذلك العالم، هي من الأمور الفوق واقعية. فنتبين أهمية مصير العارف في عالم ما بعد الموت للرائي وهو أمر لا يصدق. وفي مثل هذه الرؤى، يتلقى الصوفي جواباً كله مغفرة ورحمة من رب العالمين: «عاتبني وقال لي: لم كنت خائفاً مني غاية الخوف؟ أما علمت أن الكرم صفتي؟» (١١٦) وراه آخر في المنام فقال له: «لم يكن أحبّ منك عندي على وجه الأرض في الساعة التي قبضت فيها.» (١١٧، ١١٦)

ومن الحالات الأخرى، سكان أهل السماوات وسكان العرش الإلهي، الملائكة، الحور، ملك الموت، وإبليس. يأتون في المنام، ألم تكن رؤيتهم في المنام لحل المشاكل وإزالة العقبات، أمراً فوق الواقع؟ ومن الدواعي التي جعلت العطار يذكر مثل هذه الرؤى يمكن حصرها إلى حالات تخص العارف، منها: كرامة العارف (١٠٦)، اطلاع العارف على الغيب (٢١٤، ١٨٦)، الخيار الصحيح (٢٨)، التعليم (٢٨٨). فالزمان والمكان والجنة والصراط هي الأخرى من جملة الرؤى التي جاءت تسع مرات في تذكرة الأولياء. مما لا شك فيه أن تصوير هذه الأمكنة ما فوق الواقعية ورؤيتها في المنام تعدّ من الأمور السريالية. والعرفاء إنما يرون هذه الرؤى لدواع وأسباب منها تعليمية (٤٨)، ومنها كرامة للعارف (٥٧٦)، أو خشية إفشاء سرٍ من الأسرار الإلهية: «رأيت القيامة في المنام فجاء خطاب في سمعي: إنّنا ابتليناه لإفشاء سرى إلى الغير.» (٥١٩).

والملاحظ في تذكرة الأولياء أن العرفاء لن يروا النار في المنام، ما يدل على أن تذكرة الأولياء كتاب تبشير للتعبير عن الرحمة والمغفرة الإلهية.

والطائفة الأخرى هي منكر ونكير وفي تذكرة الأولياء يأتيان أربع مرات في منام العارف. ولم يذكر أي إشارة في الكتاب إلى الشخصية التي رأت منكر ونكير ولا إلى صفاتها، ما يجعلنا نصنّف رؤية منكر ونكير ضمن الرؤى السريالية. واللافت للنظر أن العرفاء يتحدّثون إلى منكر ونكير بتختر وجبروت:

كيف أحبتم على أسئلة منكر ونكير؟ «يجيبون بلهجة متغترسة: في ذلك اليوم الذي قالوا لنا: ألسنت بربكم.» (٣٩٣) ويأتي في مكان آخر: «يجيب بلهجة متغترسة، ما يثير

استغراب الملائكة فيقول بعضهم لبعض: إنه لا يجيب عن نفسه فحسب وإنما عن جميع الخلق من ولد آدم.»

النوع الآخر من الرؤى هي المعراج. جاء في تذكرة الأولياء نوعان من الرؤيا المعراجية: إحداها معراج أبي الحسن الخرقاني في المنام (٦٢٣) والأخرى معراج الخلق من المسجد إلى السماء (٦٦٨). ورؤية المعراج هي من جملة الرؤيا التي تصنف ضمن الرؤى السريالية.

إذا ما أردنا إحصاء الرؤى السريالية في نظرة عابرة فهي كالآتي:

أ- الرؤى الأولى:

١- الرؤى المنبئة؛ ٢- الرؤى المنبئة وفك رموز الرؤيا؛ ٣- تجسيم الفكرة أو تجسيد الفكرة؛ ٤- الرؤى بين الصحو والنوم؛ ٥- الرؤى التمثيلية.

ب- الرؤى الثانية:

١- رؤية الخالق في المنام؛ ٢- رؤية النبي (ص) في المنام؛ ٣- رؤية الإمام على (ع) في المنام؛ ٤- رؤية العارف الميت في المنام؛ ٥- رؤية الجنة والنار في المنام.
بعد دراسة مضمون الرؤيا في تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار النيسابوري يتبين أن هذه الظاهرة تحمل في طياتها وظائف مختلفة ولها دور هام وفعال في تحقيق ما كان يرمى إليه النيسابوري، لهذا يمكن القول: إن وجود الرؤيا في أكثر القصص والحكايات تجعلها أكثر إيقاعاً وتأثيراً في نفوس الجمهور. وظائف الرؤيا في تذكرة الأولياء كالآتي:
١- حل المشاكل، ٢- الاستلهام والبشارة، ٣- أداة للتعبير عن المفاهيم العرفانية، ٤- التوصية، ٥- التمني والرجاء في المنام، ٦- الاستفسار في المنام، ٧- أداة للتعبير عن الرحمة والمغفرة الإلهية، ٨- وسيلة لإرشاد وتوجيه العرفاء، ٩- ذريعة لنقل رسالة من جانب الخالق إلى العارف.

كانت الرؤيا محط اهتمام الصوفية والعرفاء من زوايا عدّة. وفي أحوال الصوفية بالتحديد، حظى تفسير رؤيا العارف بمكانة بارزة. وبدراسة مضامين الرؤى التي تناوها كتاب تذكرة الأولياء بين الحين والآخر، نرى أن هذه الرؤى جاءت متناسقة مع غاية

الصوفية من طريقة السير والسلوك العرفاني. وأحد هذه الأهداف هو شرح الكشوف والشهادات العرفانية.

ولم تشاهد الرؤى المشتتة والأضغاث من الأحلام في تذكرة الأولياء، ويدل هذا على أن العطار يختار الرؤى المؤهلة والمفضلة ليوطنها في تحقيق المفاهيم العرفانية والدينية. ويشمل ذلك أيضا الرؤيا الصادقة التي تكشف عن وقائع حدثت في الماضي أو ستحدث في المستقبل.

قد خضعت رؤى العرفاء للبحث والدراسة بموضوع الكشف بشقيه؛ حل المسألة، ورفع الستار عن الصراعات العقلية واكتشاف الأحداث المستقبلية. توضح هذه الدراسة أن أحد أهم وظائف الرؤيا التي قدّمها العرفاء في تذكرة الأولياء، تتمثل في حل العديد من اللزاعات والقضايا العقلية خاصة في مجال القضايا الدينية والصوفية العرفانية. إضافة إلى ما قدمه العرفاء من التعبير عن القضايا من خلال الرؤيا، فقد كان لهم دور بارز في قوة تأثيره على الجماهير. إن حل مثل هذه المسائل في رؤيا العارف، يُنظر إليه باعتباره مكاشفة ملهمة، تنبئ عن أحداث لم تحدث بعد في الواقع.

قد أشار العطار في تذكرة الأولياء إلى دور الطموح الإنساني وانعكاسه في الرؤيا بشكل واضح. ورؤية تلك الرؤى الصادقة للعرفاء والصوفية إنما هي لامتلاكهم قلوباً صافية وضمائر نيرة. كثيراً ما يستمد العطار بأسلوب التمثيل لشرح الأفكار والمفاهيم العرفانية والدينية والفلسفية، ذلك لأن اللغة التي تتبع عن الإحساس والأفكار العادية، لا يمكن أن تكون بأي حال من الأحوال أداة مناسبة لنقل المفاهيم العرفانية. وبناء على ذلك، فإن الرؤيا التي تتحدد كبناء لدرك الأسرار الغيبية، لا بد أن يعبر عنها بلغة تمثيلية رمزية يلفها بعض الغموض أحياناً.

لا شك في أن الرؤيا عادة ما تستخدم للتنبؤ عن الأحداث المستقبلية، ولكن العرفاء والصوفية في تذكرة الأولياء، إنما يوظفون الرؤيا لإيضاح طريق السير والسلوك العرفاني. وقد استعملوا الرؤيا في مجالين أساسيين؛ التنبؤ عن أحداث المستقبل، والتواصل مع الأموات. وكثيراً ما تردد وتكرر في هذا الكتاب، رؤية العارف للعارف الميت الراحل عن هذه الدنيا فيراه في المنام ويسأله: ما صنع الله بك؟ وفي أغلب الحالات، يكون الرد:

الصفح عن الذنوب ويحصل العفو لأدنى عذر. والغاية الرئيسة لهذا الكتاب والرسالة التي أراد العطار إيصالها من خلال الرؤيا في تذكرة الأولياء، إنما هي انعكاس الرحمة والمغفرة الإلهية الواسعة، على خلاف كثير من الكتب التي تبعث الرعب والفرع والعذاب الإلهي في القلوب. ولكن تذكرة الأولياء كتاب يبعث على التفاؤل والأمل والرجاء في المغفرة والرحمة الإلهية.

النتيجة

من أهم النتائج التي توصل إليها البحث، هو تبيين هدف السريالية في توعية الإنسان بنظرة ورؤية جديدة بالنسبة للأشياء والعالم. وقد عمدوا في ذلك إلى أنه قد يحصل من خلال تشتيت العقول وإثارة الاستغراب ما يثير الدهشة والحيرة. ولم يكن آندريه بيرتون أول من دعا إلى تدوين الرؤى وتعبير الرؤيا وتفسير المتاهات كتابةً من خلال لغة تتناول القضايا فوق واقعية، وإنما أسلوب هذه الكتابة بدأ منذ أن ميّز البشر بين الرؤيا والواقع. ومنذ آلاف السنين قبل آندريه بيرتون وأتباعه، قد كتب الصوفية من خلال مؤلفاتهم المثيرة وغير الواعية بنفس الأسلوب الذي كتب بها السرياليون الفرنسيون في القرن العشرين.

نحن في تذكرة الأولياء نواجه أنواعاً مختلفة من الرؤى، ولكن يصب أكثرنا إلى تلك الرؤى التي تحتوي على سمات سريالية. رؤى تعبر بلغة ما فوق الواقعية، لا تُصدّق ولا تنطبق مع العقل أي أن المنطق لا يمكن أن يقبله ويأخذ به. ففي عالم الواقع لا يمكن التحدّث إلى الخالق أو إلى النبي أو إلى الإمام على أو سائر العرفاء الذين رحلوا عن عالمنا، تلك الرؤى التي تعرض حلولاً للمشاكل والمسائل المتعلقة لعالمنا الواقع. وجميع الأحداث التي تقع في الرؤيا من خلال المنام، تنعكس آثاره في الواقع. وهي الرؤى التي يمكن اعتبارها نوعاً من المعراج. يمكن تقسيم الرؤى السريالية في تذكرة الأولياء إلى قسمين: الطائفة الأولى: الرؤى المنبئة؛ الرؤى المنبئة وفك رموز الأسرار؛ تجسيم الفكرة؛ الرؤيا بين الصحو والنوم؛ الرؤى التمثيلية. والطائفة الأخرى: رؤية الخالق؛ رؤية النبي (ص)؛ رؤية الإمام على (ع)؛ رؤية العارف الميّت؛ رؤية القيامة والجنة. وفي

بعض الأحيان يندمج النوعان من الرؤى مع بعضهما ما لا يمكن تفكيكها وتصنيفها في طائفة واحدة دون أخرى.

المصادر والمراجع

ابن عربي، محي الدين. (١٣٩٣ش). الفتوحات المكية. محمد خواجوي. ط ٢. طهران: دار مولى للنشر. أنوشه، حسن. (١٣٧٦ش). القاموس الأدبي الفارسي. طهران: دار نشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.

أحمد سعيد، علي. (١٣٨٠ش). التصوف والسريالية. حبيب الله عباسي. طهران: دار سخن للنشر. أحمدى، بابك. (١٣٧٦ش). أربعة شروح لتذكرة الأولياء للعطار. طهران: دار مركز للنشر. بيگزي، سي. و (١٣٧٥ش). الدادئية و السريالية. حسن أفشاري. طهران: دار مركز للنشر. پارسا، سيدأحمد. (١٣٨٨ش). «أنواع الأحلام والرؤى في المثنوى». مجلة الأدب العرفاني. الدورة ١. الربيع والصيف. صص ٣٣-٥٨

ثروت، منصور. (١٣٨٥ش). «الرؤيا ودورها في النصوص العرفانية». اللغة والأدب الفارسي. دورية كلية الآداب والعلوم الانسانية. جامعة تبريز. سنة ٥٢. خريف وشتاء. صص ٤٧-٢٤ جهان تيغ، مريم. (١٣٩١ش). «التشابه الصوري في الأدب السريالي في تذكرة الأولياء للعطار». دراسة الشعر (بوستان الأدب- العلوم الاجتماعية والإنسانية) الخريف. دوره ٤. العدد ٣ (الرقم التسلسلي ١٣). صص ١٨-١

فروزان فر، بديع الزمان. (١٣٦١ش). شرح مثنوى شريف. طهران: دار ومكتبة زوار للنشر. كزازی، ميرجلال الدين. (١٣٨٥ش). الرؤيا ملحمة الأسطورة. طهران: دار مركز للنشر. ميبدی، أبو الفضل رشيد الدين. (١٣٨٢ش). باهتمام على أصغر حكمت. طهران: أمير كبير للنشر.